



عيد الرحمن العشماوي

أشعاره تقطر دماً وقصائده مفسولة بالدمع

لعل من أبرز ما يميز المبدعين الحقيقيين، أنهم عندما يقفون أمام حدث من الأحداث، أو مناسبة من المناسبات الدينية، يربطونها بالواقع.. ويوظفونها أحسن توظيف، ويستلهمونها للتذكير بالعودة إلى منابع الصافية والجدور الأولى... فأغلب قصائدهم تحض على التمسك بالدين، وتدعو إلى الوحدة والتضامن، وببذ الفرقة والشتات، وكثيراً ما يشخصون الواقع تشخيصاً دقيقاً، فيكتشفون العلل والأمراض التي حلت به، ويصفون الدواء وصفاً صحيحاً.. ولعل هذا هو اللون الأدبي: المعني في الحديث النبوي الشريف: «إن من البيان لسحراً، وإن من الشعر لحكمة».



محمد عبد الشافي القوصي - مصر

التعبير الأدبي.. فقد تناول الحدث واستلهم المناسبة بطريقة مغايرة.. ولكن قبل الحديث عن تلكم المناسبة، نعرِّج معه على جانب من مسيرته الإبداعية، من أجل فض مغاليق عالمه الشعري، وسبر أغواره الإبداعية.

لقد امتطى (العشماوي) جواد الشعر، فأطلق له العنان، وتخطى به اليابس والماء، فاستطاع أن يعبر عن مشاعر المسلمين في كل مكان - آلاماً

ومن الشعراء الذين فاضت قرائحهم بأجمل قوافي الشجن الحزين، في تشخيص أمراض الأمة وعللها؛ عبد الرحمن صالح العشماوي؛ الذي سكب دموعه مدراراً، وبحت حنجرتة، عبر مئات القصائد النارية التي أطلقها يميناً وشمالاً!

لا ينسى المتتبع لرحلة العشماوي الشعرية؛ قصيدته الطويلة (من ها هنا مرَّ تاريخي) التي صورَّ من خلالها مناسبة الحج بأحسن ما يكون

صنعوا قهوة الخضوع، فلما
أتقنوها تَبْرأ «الفُنْجان»
بلّ استمع إليه -مغتبطاً ومشجعاً- وهو ينادي
على الفتى الفلسطيني الذي يرمي بالحجر، قائلاً له:

عطر البطولة في طريقك ينثر
واليك أهداب المفاخر تنظرُ
شرفت بك الأرض التي أمهرتها
دمك الكريم، وقدها بك يفخرُ
والمسجد الأقصى على محرابه
أمل، بكفك والحصى، يستبشرُ
إني رأيتك في مواجهة الردى
جبالاً بهامته السحائب تبهرُ
من أين جئت؟ أكاد أحلف أنني
أبصرتُ أن سواك عندك يصغرُ
يا فارس الحجر الأشم، عيوننا
صارت بعينك في الحوادث تبصرُ

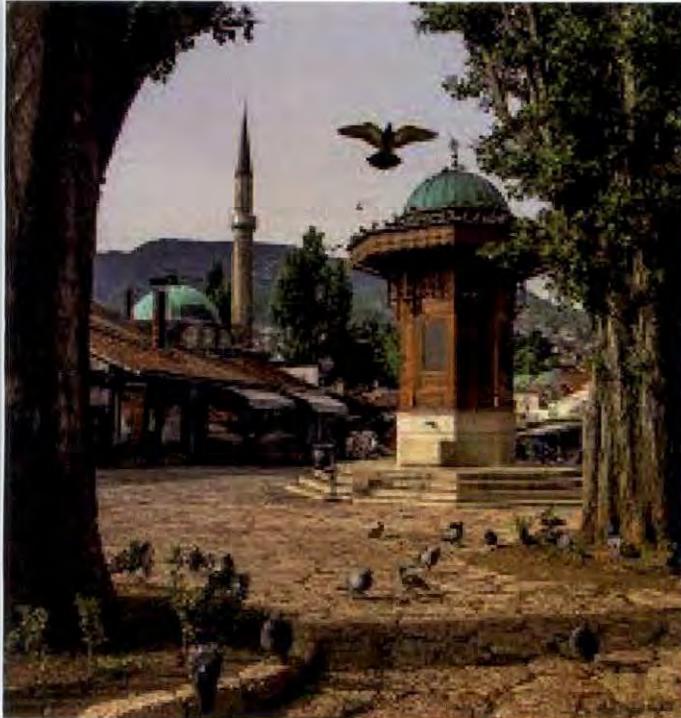
وآمالاً- فمن أول سماعك أو قراءتك لأشعاره
ترتعد فرائصك، وتتصبّب عرقاً.. مما رسمه
لك من لوحات ومناظر حزينة حيناً، وشجية حيناً
آخر!

يصدر «العشماوي» عن تجربة شاعر معاش
للهم العربي والإسلامي، يوماً بيوم.. من هنا
جاءت أشعاره تقطر دماً، وصارت قصائده مغسولة
بالدمع! وعندما تسأل عبد الرحمن العشماوي
عن هذا... يقول لك: أسأل الشعر ذاته، فالشعر
يكتبني!

الشعر يكتبني ويعزفني على
وتر الأسى ويهزّ جزع خيالي
والشعر يعرف ما يعاني خاطري
فيفيض بالآلام والآمال
فلكم أتى شعري كأنفاس الصبا
حيناً، وحيناً جاء كالزلزال!

كما يلحظ المتتبع لمسيرة العشماوي، مدى
التدفق الشعري الذي صاحبه خلال تلك الرحلة،
ولعلّ مأساة فلسطين وأهوالها كان لها الحظ
الأوفر من هذه البحور والقوافي والأوزان المتنوعة،
فلا يكتفي -شاعرنا- بما سطره عنها من قصائد
ودواوين خاصة بها، بل يجعلها قاسماً مشتركاً في
سائر موضوعاته ورؤاه الإبداعية، فهي ملازمة له
عندما يكتب عن الصومال أو الشيشان أو البلقان
أو غير ذلك من المحن والأزمات التي أصابت
الأمّة... فيقول في قصيدته «من القدس إلى
سراييفو»:

يرحل الشعر بي إلى القدس، لكن
كُسِرَتْ عند بابهِ الأوزانُ
أه يا قدسنا تنكّر قومُ
وأباحوك للعدوّ وخانوا





وترون أَمْأَ يُسْتَبَاحُ عَفَافِهَا
والطفلُ يُقْتَلُ قَبْلَ حِينِ فِطَامِ
وترون آفَ الثَّكَالِي بَيْنِنَا
وترون أَلْفَاً مِنَ الْآيَتَامِ
وترون أَوْرِبَا تَقْسَمُ أَرْضِنَا
جَهْرًا وَتُصَدْرُ حِجَّةُ اسْتِحْكَامِ
فَتُحَوِّقِلُونُ وَتُغْمِضُونَ عِيُونَكُمْ
وأنا على جمر الصليب الحامي



يا فارس الحجر الأشم، قصائدي
ترنو إليك حروفها وتقدرُ
ما أنتَ بالطفل الصغير، وإنما
أنتَ الشجاعُ الحرُّ لا يتقهقرُ
في تقديري؛ أنه لا يوجد شاعر معاصر اكتوى
بأزمة «البلقان» واصطلى بلهبها مثل عبد الرحمن
العشماوي.. إذ فاضت قريحته في التعبير عن مأساة
البوسنة والهرسك طيلة ثلاث سنوات، وهي الحقبة
الكئيبة التي دارت رحى الحرب فيها على المسلمين
هناك، وشهدوا ما لم تشهده أوروبا كلها في الحربين
العالميتين! فاستمع إلى العشماوي في قصيدته
«سرايفو تقول لكم»:

«سرايفو» تقول لكم: ثيابي
مُمزَّقةٌ، وجدراني ثقوبُ
محاريبي تئنُّ، وقد تهاوى
على أركانها القصفُ الرهيبُ
وأوردتني تُقَطِّعُ، لا لأنني
جنيتُ، ولا لأنني لا أتوبُ
ولكنني رفعتُ شعاعَ دينِ
يضيقُ بصدق مبدئه الكذوبُ
لأنني لا أجاملُ أو أحابي
ولا أرضى الخضوعَ ولا أذوبُ

ليس هذا فحسب، بل استمع إليه، وهو يترجم
أحاسيس ومعاناة طفل من أطفال الأقليات المسلمة،
فيقول في قصيدته «رسالة شكر من طفل بوسنوي» التي
كتبها سنة ١٤١٤ هجرية - وفيها من السخرية اللاذعة
والعتاب المرير الذي هو أشد من جلد الشياطين:

شكراً لكم يا مسلمون فقد بدتُ
لي، غيرةُ الأخوال والأعمام!
تهوي مآذِننا على شاشاتكم
وتُمزِّقُ الأجساد بالألغام

ويذكر الغافل... فها هو ذا شاعرنا يصحبنا معه في رحلته حول العالم، كاشفاً لنا عن مواضع أخرى من الألم الذي استبدَّ بجسد الأمة، أما الوجد هذا، فليس في أفريقيا، ولا في أوربا، إنما يكمن في شبه القارة الهندية! إنه كما أسماه الشاعر (صرخة من المسجد البابري):

يا ويحكم يا مسلمون، ماذني
تهوي، وبيت مؤذني ينهارُ
ويئنُّ محرابي على أنقاضه
ويموتُ تحت ركامي الأخيارُ
ملياركم لا خير فيه كأنما
كُتبت وراء الواحد الأصفارُ
ما جرأ الهندوس إلا صمتكم
ولكم يندلُّ بصمته المغوارُ
خابت سياسة أمة، غاياتها
تحقيق ما يرضى به الكفارُ
ومع كل هذا العطاء المتدفق من البحور الشعرية، وهذا الاسترسال الذي يكاد لا يتوقف... إلا أننا نجد (العشماوي) كأنه يبدو حزيناً أسفاً، فيلتمس الأعذار، قائلاً: إن هذه المآسي بكثرتها وتوعها دونها الحروف والكلمات:

وإذا تلعثت الحروف فعذرُها
أن الأسي فيما تراه كبيرُ
كم شاعرٍ قد رأى من حوله
عمق الجراح فخانه التعبيرُ
لكن، إذا انتقلنا مع شاعرنا إلى جانب آخر، بعيداً عن الهموم والأحزان والجراح النازقات، لتعيش معه في رحلة وجدانية، وسياحة روحية في روضات الحرم الشريف، وفي أطيب البقاع وأطهرها.. نراه يجترُّ أشهى الذكريات على النفس، وأوقعها تأثيراً، وأعذبها رنيناً بالأذان..

أستغفر الرحمن من ظلمي لكم
فلقد مسحتم جرحنا بكلام
شكراً لكم يا مسلمون لأنكم
لم تبعثوا أحداً تجمع خطامي
زيدوا من النوم الطويل فإنكم
سترون فيه عجائب الأحلام
ودعوا لنا ما نحن فيه فإننا
نهضوا لعون الواحد العلام
لم يزل «العشماوي» يطوف حول ضفاف الجراح النازقات من بلد إلى بلد، ومن قطر إلى آخر، فبعد أن عبر بنا من فلسطين السلبية إلى البلقان الجريفة، ها هو ذا يجرُّنا إلى القرن الأفريقي المنسي، لينقل لنا لوحة حزينة بأئسة لطفل صومالي حائر، أنهكته المجاعات بعدما أنهكت بلده الحروب الأهلية الطاحنة، فيقول في قصيدته «صرخة طفل صومالي» التي كتبها سنة ١٤١٣هـ:

أنا، من أنا، في هذه الأرض التي
تشقى بسوء تعامل الأندال؟
أنا، من أنا، قل لي بربك يا أبي
إني أرى ما ضاق عنه خيالي؟
ثم يقتلون أمام عيني إخوتي
ثم يحرقون ملابس الأطفال؟
أبتاه، هل في الأرض قلب خافق
أهناك قوم يشعرون بحالي
رخصت دماء المسلمين، فهل مضى
زمن الإباء، وموقف الأبطال
ما هذه حرب القبائل بيننا
بل خطة الأعداء لاستئصالي
لا يفتأ «العشماوي» يصول ويجول هنا وهناك، متبعاً ما يحدث لأمة، وما يُدبر لها في الخفاء، فيطلق زئير شعره مدوياً كالصواعق، ليوقظ النائم،



إنه يرسم بريشة فنان بارع بعض اللقطات المجيدة الخالدة.. فالشاعر يستحضر في ذهنه أجمل المواقف على الإطلاق، فها هي «القصواء» وفوقها سيد الأنام صلى الله عليه، في حجة الوداع.. يتلو على الناس من الذكر الحكيم، ويعلمهم أمور دينهم، وها هو (الهادي البشير) حول البيت الحرام.. وها هو في مشهد عرفة وآلاف الناس من حوله ترقبه كالبدر في إشراقه. فيقول العشماوي في قصيدته (من هاهنا مرّ تاريخي):

رَأَيْتُ نَاصِيَةَ الْقَصَوَاءِ قَابَتْهَجَتْ

نَفْسِي، وَأَتْبَعْتُهَا فِي لَهْفَةٍ نَظْرِي

هَشَّتْ لَهَا الْأَرْضُ وَاشْتَاقَ التَّرَابُ إِلَى

مَسِيرِهَا، وَتَدَانَتْ شُقَّةُ السَّفَرِ

وَفُوقَهَا «سَيِّدُ الْأَبْرَارِ» يُعْلَنُ مَا

أَتَى بِهِ مِنْ حَدِيثِ الْوَحْيِ وَالنُّذُرِ

رَأَيْتَهُ فِي مَطَافِ الْبَيْتِ يُسْعِدُهُ

دَعَاءَ مَبْتَهَلٍ لِلَّهِ مَعْتَمِرِ

رَأَيْتُ فِي عَرَفَاتِ اللَّهِ مَوْقِفَهُ

وَقَدْ جَرَى حَوْلَهُ بَحْرٌ مِنَ الْبَشَرِ

ثُمَّ يَنْتَقِلُ الشَّاعِرُ بِنَا إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُنُورَةِ بِبِرَائَتِهَا

وَنَضَارَتِهَا.. فَيَنْقَلُ لَوْحَةً بَعَيْنِهَا تَرْمِزُ لَفِزْوَةَ بَدْرِ

الْكَبْرِيِّ، وَكَأَنَّهُ يَبْصُرُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا،

وَمَعْسَكَرِ الشَّرْكِ بِزَعَامَةِ أَبِي جَهْلٍ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى،

وَلَا يَزَالُ الشَّاعِرُ يَعَايِشُنَا مَعَهُ فِي أَجْوَاءِ الْمَدِينَةِ

الْمُنُورَةِ، فَيَصِفُ لَنَا «الْخُنْدُقَ» وَكَيْفَ حَمَى الْمَدِينَةَ مِنْ

الْغَزَاةِ، وَمَاذَا فَعَلَتْ الرِّيحُ بِالْمَشْرُوكِينَ:

رَأَيْتُ طَيِّبَةَ وَالتَّارِيخُ يَحْمِلُهَا

فِي رَاحَةِ الْعِزِّ حَمَلُ الْغُصْنِ لِلثَّمْرِ

رَأَيْتُ بَدْرًا وَزَهْوَ الْعُدُوتَيْنِ وَمَا

لَاقَاهُ وَجْهَ أَبِي جَهْلٍ مِنَ الْعَصْرِ

رَأَيْتُ خُنْدُقَهَا يَحْمِي بِرَاءَتِهَا

وَالرِّيحُ لَمْ تُبْقِ دِيَارًا وَلَمْ تَذَرِ

هَذَا الْحَبَّ الْغَامِرَ، وَالشُّوقَ الْجَارِفَ، لِتِلْكَ

الذِّكْرِيَّاتِ الْعَطْرَةَ، وَالْمَوَاقِفَ الْأَسْرَةَ.. الرَّفِيقَةَ

بِالنَّفْسِ وَالْمَحَبَّةِ إِلَيْهَا؛ الَّتِي جَعَلَتْ شَاعِرَنَا

يَسْتَوْقِفُ التَّارِيخَ وَيَسْأَلُهُ بِأَلَمٍ وَحُزْنٍ شَدِيدِينَ،

قَائِلًا لَهُ:

قَفْ هَاهُنَا أَيُّهَا التَّارِيخُ خُنْ بِيَدِي

فَإِنَّ أُمَّتَنَا بَاتَتْ عَلَى خَطَرِ

قَفْ هَاهُنَا أَيُّهَا التَّارِيخُ خُنْ بِيَدِي

وَكَتَبَ لَعْلِكَ تَجَلُّو الْحَقَّ لِلْبَصْرِ

هَذَا هُوَ الشَّاعِرُ الدُّكْتُورُ «عَبْدُ الرَّحْمَنِ صَالِحِ

الْعَشْمَاوِيِّ» الَّذِي عَشْنَا مَعَهُ جَانِبًا مِنْ جَوَانِبِ

إِبْدَاعَاتِهِ، مِنْ خِلَالِ تَجَارِبِهِ الشَّعْرِيَّةِ الْمُفْعَمَةِ

بِالرُّؤْيِ الْإِسْلَامِيَّةِ الصَّادِقَةِ، ذَاتِ اللَّفْظِ الْعَذْبَةِ،

وَالْخِيَالِ الْخَصْبِ، وَالبَيَانِ الصَّالِحِ، الَّذِي رَسَمَ بِهِ

أَجْمَلَ لُوحَاتِهِ الْفَنِيَّةِ ■